

الدرس 1

الفكر الإسلامي وعلاقته بالقضايا الكلامية: تأصيل عام

أهداف الدرس

1. أن أتصور معنى الفكر الإسلامي؛
2. أن أثبت العلاقة بين الفكر الإسلامي والقضايا الكلامية؛
3. أن أتمثل ذلك في دراستي وتعاملي مع العلوم.

تمهيد

بعد وفاة النبي ﷺ أقبل المسلمون على القرآن والسنة اللذين يمثلان الإرث النبوي، وعكفوا على النظر فيهما والاستنباط منهما فاهتدوا إلى استخلاص المعارف والعلوم منهما والعمل بها والعيش في ظلها، ثم تناقلتها الأجيال تأصيلاً وتفريعاً، وتأسيساً وشرحاً ازداد وضوحاً وتبلوراً بعد حركة تدوين العلوم وحركة الترجمة التي أثرت وأغنت ووسعت الأفق، فتولد من ذلك فكر إسلامي وثقافة إسلامية إلى جانب العلم الشرعي، وصار للأمة الإسلامية ثروة ثمينة من العلم السامي والفكر الراقي والثقافة الراشدة أسهم كل ذلك في ازدهار الحضارة الإسلامية وشموخ بنيانها، ومن أبرز مضامين الفكر الإسلامي: القضايا الكلامية التي نشط فيها التأليف والتنظير بين المذاهب الكلامية.

فما هو الفكر الإسلامي؟ وما علاقته بهذه القضايا الكلامية؟

نص الانطلاق

قال الإمام أحمد بن قاسم العبادي شارحاً لقول المحلي وهو يوضح عبارة السبكي «والنظر الفكر»: أي حركة النفس في المعقولات بخلاف حركاتها في المحسوسات فتسمى تخيلات: «قوله (أي حركة النفس في المعقولات): فيه أمران. الأول قال العضد: الفكر هو

انتقال النفس في المعاني انتقالا بالقصد، قال السيد: حركة النفس في المحسوسات تسمى تخيلا، وفي المعقولات تسمى فكرا، هذا هو المشهور. ولما أبدل الحركة بالانتقال الذي هو أعم منها زيد القصد احترازا عن الحدس، وأيضا الحركة فيما يتوارد من المعقولات بلا اختيار كما في المنام لا تسمى فكرا، ولعل المراد بالمعاني ههنا هو المعقولات المقابلة للمحسوسات الشاملة للموهومات لأن الفكر بهذا المعنى هو الذي عد من خواص الإنسان وذلك الانتقال الفكري قد يكون بطلب علم أو ظن ويسمى نظرا، وقد لا يكون كذلك فلا يسمى به اهـ. وقوله (وفي المعقولات تسمى فكراً) قال بعضهم: ينبغي أن يقيد هذا بالقصد بقرينة قوله الآتي (الحركة فيما يتوارد من المعقولات بلا اختيار كما في المنام لا تسمى فكراً) اهـ. فقول الشارح (أي حركة النفس في المعقولات) ينبغي زيادة قيد القصد فيه، وقوله (الذي هو أعم منها) أي لشمول الحدس، ولقوله (لأن الفكر بهذا المعنى هو الذي يعد من خواص الإنسان) قد يخرج الجواب عن قول شيخنا العلامة: لقائل أن يقول إن أريد بالمعقولات ما يدركه العقل بذاته بلا واسطة خرج عنه الوهميات والخياليات فتخرج عن حد النظر مع أن مثل قولنا (هذا عدو زيد) وكل عدو لا تقبل شهادته على من عاداه فهذا لا تقبل شهادته على زيد نظر بلا شبهة وهكذا في الخيالات. وإن أريد بها ما يدركه العقل بذاته أو بواسطة فيشمل الوهميات والخياليات، فقوله (بخلاف حركتها في المحسوسات فتسمى تخيلا لا فكرا) مشكل. والظاهر أن الشارح وغيره ممن عبر بهذا العبارة ذاهب مع الأقدمين القائلين بأن العقل لا يدرك المحسوسات أصلا وإنما تدركها الحواس، وأما على طريق المتأخرين القائلين بأن العقل يدرك المحسوسات أيضا لكن بواسطة الحواس فينبغي أن تسمى حركتها في المحسوسات فكرا أيضا. اهـ.

قوله: والأمر الثاني قال السيد: فإن قلت ماذا أريد بالنظر المعرف بما ذكر أمجموع الحركتين كما هو رأي القدماء أم الحركة الثانية كما هو مذهب المتأخرين، وهل يتناول النظر في التصورات أو لا؟ قلت: الظاهر حمله على المعنى الأول إذ به يحصل المطلوب لا بالحركة الثانية وحدها، والتصور مندرج في العلم على ما فسر به فيتناول الحد الأنظار التصورية والتصديقية في اليقينيات والظنون وما يجري مجراها». [الآيات البينات، 1/263-264].

الفهم

الشرح:

- **التصورية:** نسبة إلى التصور ، وهو إدراك شيء مفرد.
- **التصديقية:** نسبة إلى التصديق ، وهو إدراك مركب فيه إسناد يحتمل الصدق والكذب كإدراك قولنا: «زيد قائم».
- **الوهميات:** ما دون مرتبة الشك من المدركات.
- **الخياليات:** ما يدرك بالتخيل وهو استدعاء الذهن صورة الواقع في الخارج.

استخلاص المضامين:

- أحدد تعريف النظر والفكر.
- أثبت العلاقة بين النظر والفكر.

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: مفهوم الفكر الإسلامي

عبارة «الفكر الإسلامي» لها إطلاقان واستعمالان:

1- إطلاق خاص: وهو الإطلاق الاصطلاحي ، والفكر الإسلامي في هذا الاصطلاح ، هو: ضرب من ضروب الدراسة والبحث العلمي في قضايا فكرية ، ترتبط ارتباطا وثيقا بالحياة الإسلامية في حاضرها ، وماضيها ، ومستقبلها.

2- إطلاق عام: والفكر الإسلامي في هذا الإطلاق ، يعني: تلك الحصيلة المعرفية التي يتوصل إليها عن طريق أعمال النظر والتأمل في أصول العلوم الشرعية الإسلامية؛ فالنظر في القرآن والسنة وعلومهما ، وما يتضمنانه من معان ، وأحكام ، وأسرار ومقاصد ، يولد لدى الناظر المتأمل فكرا متميزا ، له خصائصه ومقوماته ، هو الذي نطلق عليه (الفكر الإسلامي) ، وإنما نسبناه إلى الإسلام؛ لأنه نابت فيه ، نابع من قيمه وتصوراته ، ومنبثق من أصوله ، وبقدر ما يعمق النظر في

علوم الشرع ومعارفه وكنوزه العلمية، ويوسع التأمل في أسرارهِ ومعانيهِ، يكون ذلك سبيلاً إلى ترشيد الفكر، وتسديده، وتقويمه.

وهذا الإطلاق العام، ينسجم مع تعريفات اللغويين، وأصحاب المصطلحات للفظـة (الفكر)، فقد جاء في لسان العرب أن الفَكر والفِكر: «إعمال الخاطر في الشيء». [لسان العرب، لابن منظور مادة فكر]، وعرف الجرجاني الفكر بأنه: «ترتيب أمور معلومة، للتأدي إلى مجهول». [التعريفات، ص 167]. وعرفه أبو البقاء الكفوي بأنه: «حركة النفس نحو المبادئ والرجوع عنها إلى المطالب». [الكليات، ص 67].

والمستخلص من هذه التعريفات ونظائرها، أن الفكر هو: حصول قدر من المعرفة والعلم عن طريق النظر في جملة من الأصول، والأمور الضرورية، والبحث فيها، وفهماها؛ إذ لا يمكن للفكر - أيا كان - أن يتوصل إلى نتائج معلومة، وينتهي إلى مسائل فرعية، وقضايا جزئية إلا بالنظر إلى أصولها، وهذه الأصول هي التي عبر عنها الكفوي بـ (المبادئ)، وعبر عن الفروع والجزئيات بالمطالب، فالفكر - إذاً - ينطلق من المبادئ والأصول ليدركها، ثم ينتقل - عن طريق الفهم والبحث - إلى المطالب والمسائل الجزئية التي يدركها بالتفريع والاستنتاج والبناء على الأمور المعلومة.

ولا يوصف الفكر بأنه إسلامي إلا إذا كانت المبادئ والأصول التي ينطلق منها إسلامية.

ومبادئ الإسلام وأصوله لها مصدران اثنان، لا ثالث لهما، وهما: القرآن والسنة، تؤخذ منهما بواسطة العقل واللغة، فالفكر الإسلامي - إذاً - هو الذي يستقي مدرَكاته ومعارفه من القرآن والسنة، ويربطها بهما، ويبني عليهما قضاياها، ومباحثه، ونتائجها التي ينتهي إليها، فإذا انفصل منهما، ونأى عنهما، كان فكراً هشاً مهزوزاً، مجتث البناء، دائراً في الفراغ.

والإطلاقان معا - أي: الإطلاق العام، والخاص للفكر الإسلامي - بينهما نوع ترابط وتلازم، كالشأن في الفقه تماماً، والفكر الإسلامي في الإطلاقين معا إنما هو عمل بشري كالفقه أيضاً.

المسألة الثانية: علاقة الفكر الإسلامي بعلم الكلام

لما كان الفكر الإسلامي عملاً عقلياً بشرياً كان مفتقراً بالضرورة إلى ما ينأى به عن الزيف والزلل، ويشده إلى طريق الحق والرشاد والحكمة، ويقوم محتواه، ويحكم بناءه، ويرشد وجهته ومنهاجه، ولا يتم له ذلك إلا بدورانه في فلك القرآن والسنة، وأخذه من معانيهما وقيمتيهما ومضامينهما، واستثماره إياها، واسترشاده بها في مسأله وقضاياها التي يقوم البحث فيها على النظر فيها.

والسبيل الأقوم لضمان هذا الأخذ والاستثمار هو: أخذ حظٍّ كافٍ من علم أصول الفقه وعلم أصول الدين، يمكن صاحبهما من تكوين فكر أصولي، يفهم به القرآن والسنة، ويقوم به كلام العلماء، ويزن به الأفكار والمفاهيم، ويرتب به المعاني والمعلومات في عقله، ويسبر به ما يبحثه من القضايا الفكرية، وما يصل إليه فيها من نتائج ومطلوبات.

فأصول الفقه ينشئ فيه ملكة الفهم والاستنباط، وأصول الدين ينشئ فيه ملكة التنظير والحجاج وملكة التفكير وصناعة الآراء والأفكار؛ لذلك كانت مباحث علم الكلام من الإلهيات والنبوات والغيبات مبناهما الحكم العقلي الذي هو قطب رحاه؛ وبهذا الاعتبار تتضح العلاقة بين الفكر الإسلامي ومباحث علم الكلام وقضاياها ومسائله.

التقويم

1. أبين إطلاقات الفكر الإسلامي.
2. أوضح علاقة الفكر الإسلامي بعلم الكلام.

الاستثمار

قال الماوردي نقلاً عن الإمام الشافعي: «من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبّل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم اللغة رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه». [أدب الدنيا والدين، ص 77].

أَتأمل النص وأحاول أن أستخلص منه علاقة العلم بالفكر ، وكيف يمكن الاستفادة من العلم في
صيانة النفس وحفظها من الدنيا؟

الإعداد القبلي

أبحث في كتب علم الكلام وأحدد الآتي:

1. العلاقة بين النقل والعقل في العلوم الشرعية.
2. علاقة النقل والعقل بمباحث علم الكلام.